هـــــل القتلـــــة بيننـــــا؟

كاظم حبيب

عندما سقط النظام النازي الهتلري في المانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية صدرت الكثير من الاعمال المهمة التي حاولت القوى الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية استيعاب وهضم وتحليل واستخلاص الدورس من الفترة المنصرمة من حكم الفاشية لما يقرب من ١٢ عاماً، وسبل مواجهة الفكر النازي الذي سيطر على عقول وقلوب الناس الالمان لسنوات طويلة، فيماعدا تلك القوى المعادية للفاشية والحرب والنظام النازي، ويفترض ان نشير الى ان المانيا.

ورغم العمل الطويل المتواصل والكثيف ضد فكر الحزب النازي وحكم الفاشية الهتلرية لم تتخلص بشكل كامل ونهائي من بقايا هذا الفكر اذ لاتزال هناك جماعات سياسية سرية وعلنية يطلق عليها بالنازية الجديدة او الفاشية الجديدة التي لا تختلف في جوهرها عن الفكر النازي القديم، الا بطريقة العرض لافكارها وسياساتها او برامجها ليتسنى لها تجاوز الدستور الديمقراطي الالماني الذي يحرم الفاشية، وفي عام ١٩٤٦ اخرج فيلم المانيا تحت عنوان (القتلة بيننا) حيث كانت النقطة المركزية التي جرى التركيز عليها في هذا الفيلم هي ان النظام الفاشي الهتلري قد سقط حقاً، ولكن الفكر الفاشي ورجاله والقتلة الذي لطخوا ايديهم بدم الملايين الابرياء من اليهود والرومان والسنتي (الغجر الاوربيين) والسلافيين والشيوعيين والاشتراكيين والمسيحيين الديمقراطيين.. الخ، وان هؤلاء كانوا يجلسون في مواقع المسؤولية في الوزارات ومؤسسات الدولة وفي التعليم والبحث العلمي وفي كل مكان، وان مسؤولية الشعب والدولة الديمقرطية هي ايجاد سبل مواجهة القتلة منهم وتحييد الذين فرض عليهم الانضواء تحت لواء الحزب النازي والتعرف على المعادين للحزب النازي الذين كانوا مع ذلك اعضاء في هذا الحزب، ورغم مرور مايقرب من ستين عاماً على سقوط النازية، فأن الصحف تنشر بين فترة واخرى عن وجود نازي قديم ممن كان يعمل في الاستخبارات العسكرية والامن الداخلي الالماني يعمل في مكان ما من اجهزة الدولة او المؤسسات المختلفة او انه قد توفى منذ فترة قصيرة ولم يكتشفه احد..

تواجه العراق اليوم حالة مماثلة، رغم الفارق بين الدولة الفاشية والدولة الصدامية من حيث المكان والزمان والحجم والسكان والمخاطر التي شكلتها النازية الالمانية على العالم بسبب الحرب العالمية الثانية وبسبب ارتباطها باعتى الاحتكارات الرأسمالية الالمانية التابعة لاكبر الاحتكاريين الرجعيين الالمان، فالعراق يواجه اليوم واقعاً معقداً ينبغي علينا ان ندركه ونتحرى عن الحلول العملية له، اذ ان لنا تجربتنا الخاصة والجديدة في هذا المجال، رغم اهمية التعلم من التجارب الاخرى التي مرت بها العديد من شعوب العالم في هذا الصدد.

فحزب البعث الصدامي بقي في الحكم ثلاثة اضعاف الفترة التي كان الحكم الهتلري في الحكم تقريباً، واستطاع خلال هذه الفترة ذات الاجيال الثلاثة ان يترك تأثيره المباشر على الاجيال التي نشأت في ظل حكم البعث واجبرت على الارتباط بفكر البعث وممارساته، والتي لم تتعرف على القوى السياسية الاخرى التي ناضلت طويلا في العراق قبل واثناء وجود البعث في السلطة بسبب محاربته لها وسعيه لاستئصالها من الساحة السياسية العراقية، وان التربية التي اعتمدها صدام حسين تميزت بوجهتها الاستئصالية للفكر الاخر والشخص الاخر وغرس فكر صدام حسين الاستبدادي والعنصري والقمعي المشوه في ادمغة الاطفال والشباب خاصة في المنطقة العربية من العراق.

وقامت نواة البعث المخلصة لصدام حسين وبدعم من اجهزة الامن والاستخبارات والمخابرات، باقصاء غير البعثيين من اجهزة الدولة المدنية والعسكرية ومؤسسات البحث العلمي والمدارس والكليات والجامعات والمؤسسات الاقتصادية والخدمية وقيادات النقابات والمنظمات (غير الحكومية) والمنظمات المهنية ووضع مكانهم بعثيين مخلصين وخاضعين لصدام حسين قبل اخلاصهم لحزب البعث والدولة البعثية.

وفي الحرب الاخيرة ضد نظام صدام حسين، سقط صدام حسين ونظامه ودولته، ولكن لم تسقط اجهزته وقواه الخاصة وعناصرة المخلصة، وخاصة العناصر التي شاركت صدام حسين في ترسيخ دولة البوليس السري والاستخبارات والمخابرات العسكرية والقوات الخاصة، فهذه الجماعات لاتزال موجودة في مواقع كثيرة وقادرة في الوصول الى اخرين موجودين في مواقع مهمة يمكن من خلالهم الحصول على امكانيات توجيه الضربات لاجهزة الجمهورية الخامسة والحكومة المؤقتة.

ساتطرق في هذا المقال عن تلك المسائل التي يفترض ان تكون معروفة لمن يعمل في رئاسة الحكومة العراقية ووزارة الدفاع والداخلية بشكل خاص، ولكن اجد من واجب كل واحد منا ان يطرح تصوراته بغض النظر عن مدى معرفة الاخرين بها، اذ ربما تنفع في وضع اليد على مايجب وضع اليد عليه ومنع ممارسة القتل والتخريب والتدمير.

منذ سقوط صدام تحول اعضاء ومؤيدي حزب البعث ومنظماته الشعبية واجهزته المختصة بالامن الداخلي والقومي والقوات الخاصة.. الخ الى اربعة مواقع نبدأ بالاقل خطورة باتجاه الاكثر خطوة وهي:

١-الموقع الاول: توجهت تلك العناصر، التي كانت تحس بالاضطهاد والقسر في وجودها في حزب البعث ومنظماته واجهزته، نحو هذا الموقع للعمل في احزاب اخرى او بصورة مستقلة بعد ان توفرت لها الفرصة للخلاص من كابوس النظام الثقيل عليها وعلى عائلاتها، وهي تشكل الغالبية العظمى من القوى التي حسبت في يوم ما على ملاك نظام البعث، وهذه المجموعة الكبيرة في كل مكان وعملت في مواقع مختلفة من حيث الاهمية، ولكن لم تكن في مواقع حساسة في نظام البعث.

٢-الموقع الثاني: توجهت لهذا الموقع تلك العناصر الانتهازية، التي كانت ترمي من وجودها في حزب البعث لوصول الى مواقع المسؤولية لتجني ثمار ذلك مالاً ومركزاً اجتماعياً ونفوذا سياسياً واقتصادياً، وهي ماتزال تطمح الى مواقع مشابهة في النظام الجديد، فهذه العناصر مستعدة تماماً الى تغيير مواقعها وصبغتها كما تغير الحرباء لون بشرتها وفق الظروف المحيطة بها، وهي لاتتورع في حالة الخضوع للضغط والابتزار والتهديد عن التعامل مع قوى البعث القديمة، ان لم تجد الفرصة المناسبة للحصول على موقع مناسب لها ومكاسب جيدة لمصالحها في النظام الجديد، وهي مجموعة كبيرة عملت في صفوف البعث وتنحدر من فئات اجتماعية مختلفة، وبشكل خاص من موظفي الدولة والبرجوازية الصغيرة.

٣-الموقع الثالث: توجهت الى هذا الموقع تلك العناصر التي طلبت منها قوى البعث الصدامي ان تخلد الى الهدوء والقيلولة وعدم التحرك لكي لاتكشف عن طبيعتها وهويتها السياسية والعمل على استمرار وجودها في المواقع المهمة التي ماتزال تحتلها من أجل خدمة اغراض قوى صدام حسين في الوقت المناسب، انها بمثابة قوى احتياطية تتحرك وفق الحاجة، وهي موجودة في كل مكان وخاصة في اجهزة الدولة، وهي من حيث المبدأ مخلصة لقوى صدام حسين ونظامة والتي استفادت من وجوده في السلطه كثيراً، ولاشك في ان الكثير من أئمة المساجد وبعض الجماعات الدينية وبعض القوى القومية تعمل ضمن هذه المجموعة الكبيرة، رغم انها ليست بالضرورة كانت منتسبة الى حزب البعث، ولكنها كانت متعاونة معه وحصلت على الكثير من المكاسب اثناء وجود النظام.

٤-الموقع الرابع: توجهت الى هذا الموقع تلك العناصر الاكثر اخلاصاً وخضوعاً لصدام حسين والاكثر صراحة في عدائها للوضع الجديد وحملها السلاح واستخدامه فعلاً، وهي عناصر كانت في حزب البعث وفي اجهزة الامن والقوات الخاصة، وخاصة فدائيي صدام حسين والحرس الجمهوري، واغلبهم من المحيط الذي سعى صدام حسين على استخدامهم لاغراضه الخاصة وحكمة الاستبدادي، وهذه القوى تحمل السلاح بصورة سرية ولكنها يمكن ان تمارس عملها الاعتيادي اليومي في بعض الاحزاب السياسية والمنظمات المهنية والجمعيات غير الحكومية والنقابات او الاعلام، وهي تتناوب في ما بينها تنفيذ العمليات العسكرية، وبعض هذه العناصر مستعد لطرح وجهات نظره بصراحة بالغة عندما يكون في الاحزاب السياسية العلنية او في شكل تنظيمات خاصة به، كما في تنظيم الاتحاد الوطني الذي اعاد تشكيل نفسه او مجالات اخرى غير قليلة، وهذه الجماعة هي المسؤولة مباشرة عن تنفيذ عمليات الاغتيال او التفجير او التخريب الاقتصادي، مؤسسات انتاجية وخدمية، او ضد السفارات والاجانب، وبعضها يقوم بتقديم الخدمات للقوى المضادة القادمة من وراء الحدود لدعم نشاطها التخريبي والقتل الجماعي.

ولايمكن للمجموعة الاخيرة ان تواصل نشاطها الخطر لفترة طويلة دون ان ينكشف امرها ما لم تحصل على دعم لوجستي متنوع ومستمر وملموس من الجماعتين الثانية والثالثة وعبر دعم خارجي منسق.

وتمارس جماعات البعث، التي تعمل وفق برنامج تم الاتفاق عليه والتحضير له قبل بدء الحرب بفترة مناسبة وتحت قيادة عزت الدوري، اذ ان خسارة الحرب كانت معروفة تماماً لدى صدام حسين، كان صدام حسين ولايزال رغم اعتقاله، يثق ويعتمد على عزت الدوري لاسباب ثلاثة، هي:

١-لم يكن الرجل يطمح في الحلول محل صدام حسين على العكس من عدد آخر من القياديين.

٢-وكان مؤمناً ومطيعاً لصدام حسين الى حد العبادة، فهو الذي قال مرة: لو لم يقل محمد بن عبد الله بأنه خاتم الانبياء والمرسلين لكان صدام هو خاتمهم.

٣- ويمتلك قدرة تنظيمية وقدرة على الاختفاء وله علاقات واسعة وخاصة في الريف ومع جماعات الدراويش والبدو واصحاب المواشي. في اطار مجموعات فلول صدام حسين توجد مجموعات الاغتيالات، ومجموعات التفجيرات والمجموعات المختصة بتهيئة المتفجرات والعتاد، وتلك المجموعات المسؤولة عن تنفيذ عمليات التخريب للمشاريع الاقتصادية، ومنها انابيب النفط الخام والغاز ومشاريع الخدمات العامة، والمجموعات العاملة في الاعلام وخاصة الصحافة، او تلك المجموعات التي تقوم بالابتزاز وتوجه رسائل التهديد والوعيد، او مجموعات تهيئة الاموال اللازمة من مخابئها لمواصلة تمويل العمليات المختلفة، اضافة الى المجموعات التي تنسق مع القوى الاخرى المماثلة لها في الاهداف.. الخ.

وبسبب المضايقات المتزايدة على قوى البعث وغيرها في الداخل، بدأت بعض تلك القيادات مغادرة العراق ومواصلة العمل من الخارج، حيث تم تشكيل التحالف السياسي بين جميع القوى المناهضة للوضع القائم والتي كانت مستفيدة جداً من وجودها في السلطة، وهي موزعة على عدة دول مجاورة، وتساعد التقنيات الحديثة على تذليل صعاب الاتصال فيما بينها ويفترض ان يعرف المسؤلون العراقيون بأن صدام حسين قد بني تنظيماته المختلفة وفق الاسس التي تبنى عليها عصابات الجريمة المنظمة (المافيا)، والتي تعني قتل الذين يعتبرون في عرف المافيا انهم خانوا العهد الذي قطعوه على انفسهم ازاء المنظمة، ولهذا نفذت حتى الان بعض الاغتيالات باعتبارها احكاماً بالاعدام من المافيا التابعة لصدام حسين والتي يترأسها الان عزت الدوري.

ان الاشكالية الكبيرة في الوقت الحاضر هو ان فكر البعث الصدامي ورجال صدام حسين وممارساته وعلاقاته وتاثيراته لاتزال فاعلة في العراق، وهي بالتالي التي تجسد وجود القتلة فكراً وشخوصا فيما بيننا وعلى المجتمع ان يضع اليد عليهم دون ان يفقد الثقة بنفسه او يشك في المجتمع، فالشعب يعرف هؤلاء الناس ويستطيع تشخيصهم بسهولة ان قرر التعاون الجاد والفعلي مع الحكومة العراقية المؤقتة، والخطورة الفعلية تكمن في القوى التي بدأ يطلق عليها في اوروبا بالجماعات النائمة أو انها في القيلولة، أي الجماعات الساكنة لكي لاتجلب الانتباه اليها، اذ انها تشكل حصان طروادة في المجتمع والتي يفترض ان تراقب جيداً لمنع قيامها بما يلحق أضراراً فادحة بالمجتمع والاقتصاد الوطني.

ان النشاطات الاخيرة لقوى الارهاب تعكس تداخلاً واضحاً وتوزيعا ملموساً للعمل بين جميع الفصائل البعثية وجماعات القاعدة وانصار الاسلام وانصار جيش السنة وغيرها، ولها مواقع حصينة في تكريت والفلوجة والرمادي وبعقوبة وفي المناطق الحدودية بين العراق وسوريا والاردن والعراق وايران على نحو خاص، كما ان لها امكانيات العبور عبر الحدود العراقية - السعودية ايضا نحو العراق بسبب المطاردة المستمرة لعناصرها في السعودية فيتم تصديرهم عمليا الى العراق ولااشك بأنهم سيبدأون اعمالهم التخريبية في سوريا ايضا حالما تبدأ سوريا بالتضييق الجدي على هذه القوى على الحدود العراقية - السورية، وهو ما لم يحصل حتى الان، اذا لاتزال سوريا تطلق على هذه القوى اسم (المقاومة).

من هنا يتطلب عملاً جماعياً من قبل جميع الاحزاب والقوى السياسية المناهضة للصدامية، فكراً وممارسة، ولكل القتلة الذين سخرهم النظام لقتل ارادة الشعب وسحق كرامته واذلاله، والى توزيع العمل على المجالات الفكرية والسياسية والجوانب المختلفة من الحياة الثقافية العراقية، في مجالات الغناء والموسيقى والرقص والرسم والنحت والمسرح والسينما، في الشعر والقصة والرواية والصحافة، في العمل التدريسي والتثقيفي اليومي للجماهير الشعبية، في الاعلام السمعي والبصري والمقروء، ولن ينفعنا العنوان البائس الذي وضعه بريمر للهيئة الوطنية لاجتثاث البعث اذ ان الذين تبنوا هذا الشعار لايختلفون في تفكيرهم عن التفكير الاستئصالي للفكر الاخر، وهو لايبعدو عن كونه عملا ديماغوجيا وتهريجياً لانفع منه، وربما اساء اكثر مما نفع حتى الان، ان العمل الفكري الدؤوب والتحليل والنقد العلمي لمرحلة حكم وفكر البعث وممارسات صدام حسين هو الذي يساعدنا على افشال فكر البعث الصدامي وتعريته في الساحة العراقية والعربية على اقل تقدير، والى هذا النهج ادعو الحكومة العراقية وكل الاحزاب السياسية للعمل المنظم والمبرمج لمواجهة الفكر الصدامي الفاشي بطبيعته العنصرية والاستبدادية والقمعية، وهذا يتطلب وضع برنامج مشترك، في مقدمته تبرز مكافحة الارهاب الراهن في العراق.

قراءة في المشهد العراقي

الطاولة كأسطـــورة، أو:ركود الـــدولة الوطنية العراقية

يوسف محسن

مدخل أولي

بتاريخ ٨/أذار/٢٠٠٤ وقع اعضاء مجلس الحكم الانتقالي وثيقة اطلق عليها (قانون أدارة الدولة العراقية للفترة الانتقالية) وقد تم توقيع الوثيقة على طاولة تعود تاريخيا الى فترة الملك فيصل الاول (مؤسس الدولة العراقية الحديثة) ورغم حذف الوقائع المرتبطة بهذة (العلامة) فقد شكلت لي هاجساً فكرياً لقراءة تاريخية للدولة الوطنية العراقية وأزمات تكوينها، فمنذ أنهيار نظام الدولة الشمولية بقوة الغزو الكولوثيالي الجديد تمكن المجتمع العراقي (أفراد وجماعات) أن يعيش حواراً متفجراً حول المفاهيم اكثر من ان يكون نقاشاً حول أشكالية نظام البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصاديه والتي تتحكم بـ آليات الوصول الى السلطة السياسية وطبيعة نظام الهيمنة وسيرورات تكوين وتبلور الهوية، هذا الحوار كان وحتى الان مطبوعاً باللاعقلانيه و من شدة الهوس والهيجان الذي يصاحب الفترات الانتقالية للمجتمعات البشرية من انظمة الحكم الشمولية وحاكمية الحزب الواحد الى نظام تعددي (سياسياً وفكرياً) حيث نلاحظ سهولة الطرح في تناول سلسلة المفاهيم بدون التنقيب عن جذورها التاريخية والمجتمعية. فمن الخطاب الفضائحي الذي سيطر على المؤسسة الاعلامية بعد الاحتلال الامريكي هذا الخطاب الذي يفتقد لعناصر التحليل التاريخي-النقدي محولاً القزم الفاشي الى حقل المتخيل الاسطوري ثم الترويج لخطاب الديمقراطية التعبوية في طرح قضية الفيدرالية وتمرير القرارات المتخلفة أزاء المرأة العراقية والصمت المريب الذي صاحب هذه القرارات من قبل الجماعات السياسية سواء كانوا ديمقراطيين أم علمانيين أمام هذا الوضع المعقد، هل تمكن المثقفون العراقيون ان يطرحوا الابعاد الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية للمشاكل التي يرزح تحتها المجتمع العراقي بوضوح وشفافية امام الوعي الوطني.؟

أقصد مشكلة الديمقراطية وفيدرالية الشعب الكردي والتعددية القومية والدينية والعرقية والثقافية والسياسية للجماعات المكونة للمجتمع العراقي وقضية المرأة وعلاقة الدين بالدولة ومصادر التشريع واقتسام الثروة/السلطة والشراكة الوطنية.

ان التوترات السائدة حالياً تتطلب اعادة قراءة تاريخ حفريات الدولة الوطنية العراقية حتى الانهيار الشامل للوصول الى فهم المنحنى السياسي للحقل الايديولوجي (انهيار اليسار العراقي التقليدي، السيمات المستديمة للتيارات الليبرالية، نمو الاصولية الدينية كـ كأزمة التشكيل الايديولوجي للمجتمع العراقي، تحركت الهويات القومية والعرقية والطائفية) حيث ان هذه المفاصل تولدت نتيجة استمرار اشتغال نظام البنى التقليدية وأزمة تبلور مؤسسات الدولة الحديثة، وهيمنة الرموز الاسطورية في الفكر السياسي العراقي..

أثريات تاريخ الدولة الوطنية العراقية

في كتاب التميزات المؤقتة للثورة في العراق ١٩٥٨ لـ تورمان دانيال يطرح مشكلة الالتباس حول سبب اختيار البريطانيين العمل من خلال نظام ملكي، حيث تم فرض (ملكية) على غرار نظام (جورج الثالث) وليس (جورج السادس)؟ ان اطروحة نورمان دانيال ذي العقلية المدرسية الكلاسيكية تفتقر الى تحليل موسع لشبكة نظام البنى واشتراطاتها السوسيولوجية والتي حكمت الولادة العسيرة للدولة الوطنية العراقية عام ١٩٢١ حيث ان تشكيل هذه الدولة كان نتاجاً مشوهاً لنمط الهيمنة الكولونيالية واستجابة للنظام الثقافي والاجتماعي والسياسي السائد في المجتمع العراقي انذاك فقد تم تعيين فيصل الاول ملكاً على العراق في مؤتمر القاهرة من قبل (بيرسي كوكس Percy Cox)وجرتوودیل Gertudel ولورنس Lauranc ضد ممثل الجماعات السياسية العراقية (طالب النقيب) في حين تكونت الجماعات التي ساهمت في تأسيس الدولة العراقية من شيوخ القبائل العربية والاغوات الاكراد وكبار التجار والسادة والضباط الاشراف السابقين في الجيش العثماني، تمكن هذا التحالف التقليدي (العسكري والاشراف السابقين) من البقاء في السلطة حتى عام ١٩٥٨ مشكلاً نخبة سياسية في المرحلة الليبرالية والملكية الدستورية) حيث تم استخدام الجيش لضمان وحدة الدولة المركزية عن طريق القوة فيما شهدت حقبة الاربعينيات صراعاً على السلطة السياسية داخل (النخب) التقليدية والتي تبلورت كـ(جماعات أزمة).

بعد اتفاقية حلف بغداد والتي احدثت انعطافاً حاداً في تقارب الجماعات السياسية المعارضة وتكوين جبهة الاتحاد الوطني والتي لعبت ادواراً متباينة لوصول العسكرية الى السلطة السياسية ١٩٥٨ ولعدم امتلاك هذه المؤسسة نسقاً ايديولوجيا واضحاً تحولت هذه المجموعة من (الضباط العسكريين) الى بؤرة أزمات مزمنة أدت الى تعطيل الدستور وانهيار جبهة الاتحاد الوطني واندلاع الصراعات السياسية حتى جاء أنقلابا ١٩٦٣-١٩٦٨ ليبلورا تاريخ الدولة الشمولية القومية حيث تسلم حزب البعث العراقي السلطة السياسية في تشكيلة اجتماعية. اقتصادية مفككة. ونظام الدولة يقوم على احتكار السلطة للزعامات الفردية ونمو العنف السياسي. أمام هذه النسق التاريخي للمجتمع العراقي بدأت الدولة القومانية بقيادة البعث العراقي بتخطي الشكل التقليدي للدولة وصياغة تشكيلة جديدة تتضامن مع التاطيرات القانونية والوظائفية للدولة البعثية حيث تم دمج مؤسسة الحزب وجهاز الدولة في كيان واحد يرمز للهيمنة السياسية والمالية ومع تفكك الزعامة القومية الناصرية وارتفاع اسعار البترول ١٩٧٣ (نتيجة أزمة الطاقة) شكلت الدولة البعثية نظاماً مركزياً صارماً يستند الى شبكة معقدة من نظام القرابات والروابط القبلية والجيش ومؤسسات الشرطة والامن الوطني، أن هذا المسار التاريخي أدى الى ازمة تكون الطبقة البرجوازية الوطنية العراقية وصعود الفئات الريفية بأيديولوجيتها القومية الرثة التي تتسم بالنزعات الشوفينية مما أنتج بناء دولة توتاليتارية تلغي الاختلاف والتعددية وتمارس العنف والاقصاء والتهميش للجماعات الدينية والقومية والاثنية والسياسية المناهضة.

نهاية التاريخ للدولة الشمولية.

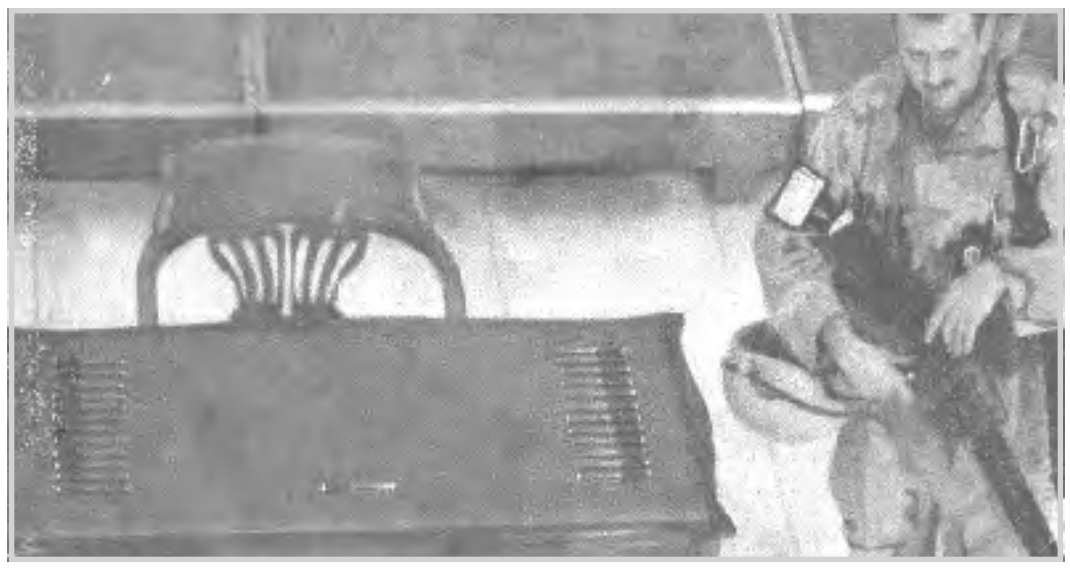

أن ظهور الدولة الشمولية القومية في احد اطوار التاريخ السياسي للمجتمع العراقي كان نتيجة لازمة تشكيل نظام البنى الاجتماعية-التاريخية ومحيط جغرافي-سياسي ضاغط بالاضافة الى أزمة اليسار العراقي التقليدي حيث ولدت هذه الدولة من رحم الوسط القومي - العلماني تقوم بنيتهما الايديولوجية على حاكمية الحزب الواحد ونزعة الاستبداد والتفرد واحتكار آليات العنف والعدوان والشوفينية القومية واستنصار (مؤسسة العشيرة والجماعة الطائفية) حيث ان هذا النسق من الدولة يعود تاريخياً الى حقبة الاستقلال السياسي عن الهيمنة الكولونياليه التي رفعت فيها الحركات القومية انذاك ايديولوجية ضخمة استطاعت ان تدمج سائر الطبقات الاجتماعية والتيارات السياسية في وحدة كفاحية.

وقد استطاع النموذج البعثي (للدولة) في صورها الاولى ان يهيمن ويحقق السيطرة الشاملة على المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية وينفذ سلسلة من الاجراءات حسبت من قبل اليسار العراقي بوصفها المسار الحقيقي للاشتراكية كـ(الاصلاح الزراعي وتأميم الثروات. و..... وبسبب أزمة التكوين للدولة الوطنية خلال عشرينيات القرن الماضي لم يستطع المجتمع العراقي ان يبلور تنظيماً مؤسساتياً/سياسياً قادراً على تحجيم الدولة التولتيارية يضاف الى ذلك ضعف القطاع والخاص وهشاشة الطبقة البرجوازية العراقية، وعدم وضوحها الطبقي والفكري والتي كان من الممكن ان تحول دون تضخم الدولة اقتصادياً وسياسياً، استطاع النموذج البعثي ان يصنع دولة كـ(كراسمالي ضخم) حيث اتسعت الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية بعد عملية دمج السياسية والامنية والحزبية والادارية في جهاز الدولة خلال حقبة الثمانينيات من القرن الماضي وهي خطوات لهندسة تاريخ الدولة الشمولية القومانية ونمو النزعة العسكرية العدوانية بعد اطلاق اول مغامرة عسكرية ضد ايران نتيجة صعود تيار راديكالي الى السلطة السياسية ادت هذه المغامرة العسكرية الى تحجيم خطط التنمية الوطنية والثقافية والاقتصادية وبناء اجهزة امنية وعسكرية معقدة وتكريس الدولة وهيمنتها على الفضاءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية واستخدام سياسية الاقتصاد والاستبعاد للتنوعات الثقافية واحتكار السلطة.

بعد انهيار الكتلة السوفيتية دخلت الدولة العراقية الفاشية في الطور الاخير من أزماتها الدورية وخاصة بعد تبلور آيديولوجية التوسع الراسمالي في الثيوليبرالية وسعيها للهيمنة حيث تم احتلال العراق وتفكيك الدولة وبداية الهيمنة المركبة للسلطة السياسية.

الطاولة الملكية (كاسطورة) أو اعادة انتاج النخب.

للوصول الى (الطاوله) كمرجعية اسطورية يتطلب كمدخل أولي تحليل الخطوط العريضة لبنيات الخطاب السياسي للجماعات الدينية والقومية والاثنية والسياسية والتي تشكل الفضاء العام للمجتمع العراقي مابعد الهيمنة الكولونيالية الجديدة فقد شكل مفهوم الديمقراطية حجر الزاوية في هذا الخطاب السياسي حيث وقع منتجو هذا الخطاب في الوهم السياسي القائل بان الديمقراطية تعني تماثل الدولة او المؤسسة التمثيلية مع تركيبة المجتمع لكون هذه التركيبة تمثل اصاله المجتمع العراقي (المخترع سياسياً) من قبل هذه الجماعات ان هذه التركيبة للخطاب السياسي تفتقد الى سيرورات التمركز حول نواة حليفة او هوية حيث انها انتاج الفكر (البلقانوني) الذي تمت اعادة هيكلته عبر آليات الهويات والاصالة والتفرد في (المخيلة الايديولوجية) يؤدي الى تمركزات (طوائف ، قوميات، اعراق، اثنيات) وتوترات سياسية للجماعات المقصية والمهمشة عن الدورة السياسية والشراكة في السلطة/ الثورة.

بعد قراءة النسق العام للخطاب السياسي لتلك النخب السياسية التي وقعت وثيقة قانون أدارة الدولة العراقية التي تتشكل من مزيج فسيفسائي أي نتاج مجتمع يعاني أزمة تكون البنى الاجتماعية الاقتصادية والتشظي الشديد والتمركز حول هويات ومرجعيات سياسية-فكرية تتراوح بين التعايش والنزاع نتيجة للعنف والقهر المنظم الذي مارسته الدولة التوتاليتارية منذ ستينيات القرن الماضي داخل المجتمع العراقي حيث ان هذه الجماعات الفسيفسائية تبحث عن أسطورة مرجعية او طقس مشترك يمثل استعادة للراسمال الرمزي للدولة الوطنية العراقية بعد الانهيار الكلي حيث ان هذا الانهيار العاجل للدوله قد حدد الفشل الاخير للدوله كما صممت لأكثر من ثمانيين سنة خلت في اعقاب مواجهة عسكرية اخرى انتهت باختفاء نهائي لاحد ابطالها الامبراطورية العثمانية قبالة الامبراطورية البريطانية وأن اعادة انتاج (الطاولة الملكية) طاولة الملك فيصل الاول مؤسس الدولة العراقية كحامل تاريخي تشير مجموعة من الدلالات الملتبسة التي يمكن اكتشافها في المشهد (المشرح) للنخب الفسفسانية التي وقعت الوثيقة حيث انها كانت مرهونة لروح الاسلاف وشعائرهم وطقوسهم (ان حاضر العراق الكولونيالي هو ماضي العراق الكولونيالي)ان هذه النخب السياسية لاتملك البعد المستقيلي (ركود البنى الاجتماعية أزمة تكوين الدوله العراقية، ضعف الحراك السياسي للطبقات الاجتماعية عدم تبلور جماعات الانتجلتينا و..... و..... هنا تكمن عملية الاخفاء الايديولوجي لجماعات النخب السياسية الجديده فهي تكرار مهيب وهزلي للنخب السياسية القديمة التي حكمت الدولة الوطنية العراقية، أبان ظهورها الاول حيث تنطوي هذه الفكرة على (المشروعية) لتجاوز الظهورات المتعاقبة للدولة الوطنية العراقية (أنقلابات.ثورات) فكان رهان الجماعات السياسية الامساك بـ تاريخية الاسطورة (الطاولة الملكية) من اجل توسيع المعنى القوة، واخفاء الشرعية السياسية على مجموعة النخب الجديدة، فـ الطاولة تؤرخ الانهيارات التاريخية المستمرة للدولة الوطنية (الدولة الدستورية، الدولة العسكرية، دولة الحزب الواحد) وهنا تكمن هزيمة الاسطورة المستعادة امام خطاب النخب السياسية لصعوبة الامساك بمصدرها او البحث عن تأطيرات مرجعية-تاريخية نتيجة الترقيعات والتمويرات التي طالتب المأتم الجنائزي العراقي في تاريخه الحديث، حيث ان هذه التحويرات تطال الذاكرة التاريخية المناهضة للذاكرة الشعبية لكون تاريخ المجتمع يعمل وفق انساق بنيوية خارج الارادات الذاتية للافراد فان البحث عن الشرعية مرهون بتغيير نمط الخطاب السياسي وتجاوز العناصر الطويطمية في تاريخ الفكر السياسي وامتلاك المستقيل وتأسيس عناصر المجتمع المدني وتحديث المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية وبناء دولة قانون وفتح حوار عقلاني تنويري لاستيعاب الآخر التعددي.

هوامش

١-ان العمل الضخم لـ حفا بطاطو يتميز بتصميم مثير للدهشة لتاريخ المجتمع العراقي.

٢-دراسة ايديولوجية الاستقلال الوطني، الشعارات، الوقائع الادبيات السياسية والاقتصادية والفكرية.

٣-المؤرخ بمواجهة الوضع في عراق مابعد الحرب، ادوار مغنية ترجمة عادل العامل صحيفة المدى العدد٩٩ في ١٣/آذار/,٢٠٠٤

٤-مظاهر الاسطورة/مرسيا الياد ترجمة نهاد خياطه .

٥- لم يتم تحليل طبيعية الازمان الدورية للدوله القومية في العالم العربي والتي اطلق عليها في حقبة البعثيات (الانظمة التقدمية) (مصر، سوريا، العرق) باستثناء الملاحظات التي قدمها المفكر الماركسي الشهيد مهدي عامل.

٦-الاسطورة هي عبارة عن قصر ايديولوجي مبني بواسطة حصى وانقاض خطاب اجتماعي قديم اكلودليفي شتروس.

٧-قراءة الكيفية التي تعيد بها الدولة الفوارق والتحازبرات بين الافراد والجماعات مفتاح لفهم التي الاجتماعية للمجتمع العراقي وتمود تدهور الدولة التوتاليتارية البعثية.